الحب والوحدة والهورمونات

إذ أبحث عن تعريف للحب يغلب ظني أنه يقع في منطقة X على حدود متداخلة بين الرغبة في تبديد الوحدة وبين استنفار لاإرادي سببه الهورمونات التي يبثّها الجسد وتتحكّم فينا بدرجات متفاوتة. فمن ناحية وجودية نهلع من وحدة نعي استحالة الخلاص منها، الوحدة التي رغم كلّ التمويه نعرف أنها مصيرنا في الوجع والموت، في الإحباط والنجاح، في السأم والإقبال، ويبدو أننا لاشعورياً نظنّ أن الحب وحده قادر على تبديدها. ومن ناحية أخرى، تعمل الهورمونات والتاريخ العاطفي عملها فينا بحيث تجذبنا حيناً وتنفرنا أحياناً، وفي بعض الأزمنة تصرّ الهورمونات على التعبير عن متنفّسها، حتى بمعزل عن الانجذاب أو النفور.

ولأمر لا ندريه تختلط الأمور بحيث نشعر في الأوقات النادرة أن الاكتفاء الهورموني يجلب معه تبديداً للوحدة، فنطير فرحاً جسدياً ونفسياً، لنعود دائماً إلى اكتشاف الانفصال الذي لا مناص منه، فنقع من قمة الطيران إلى أرض الواقع الصلبة والموجعة والباردة.

ومما لاحظته من علاقات الحب أو الارتباط هو أن أكثر هذه العلاقات ثباتاً تكون بين أناس ترابيين واقعيين، يحملون الصيغ الاجتماعية محمل الجد، كل الجدّ، فيعتبرون ثنائيتهم ضمنها تبديداً حقيقياً للوحدة. وأغلب ظني أن هؤلاء هم ممن تغلبهم الهورمونات ويغلب فيهم ما يمليه

نجلاء حمادة

المجتمع. إنهم فاقدو الإحساس الواضح بوحدانيتهم، الذين تتبدد وحدتهم بمقادير من «الحب» ومقادير من الانتماء الاجتماعي الراسخ. قد يكون هؤلاء الوحيدون المرشّحين للتغلب على الوحدة الوجودية. وهم في الغالب ينتصرون عليها بعد أزمنة من الحب وليس في أوله. هؤلاء المحظوظون، قد ينطبق عليهم قول المسيح إن من يضيع نفسه يجدها، إذ يصلون إلى تبديد الوحدة لأنهم في الأساس لا يعونها ولا يعملون على الخلاص منها. قد تبدأ علاقتهم هورمونية ممزوجة بالرغبة بالصحبة وفي إرضاء توقعات المجتمع وتنتهي إلى صيغة هي أكثر الصيغ الممكنة تبديداً للوحدة.

ولو صحت ملاحظتي هذه، لصح معها كون الأذكياء والواعين لأحوال نفوسهم وللوضع الوجودي الإنساني هم الأقل حظاً في الحصول على الحب المكتفي والثابت. فهم مرشحون دائماً لطلب المستحيل ثم للحزن عندما يكتشفون المرة تلو المرة هذه الاستحالة . وفي الغالب يتجه هؤلاء نحو المزاج الكلبي CYNISM وتسير بهم الحياة، خاصة بعد تذاوي الهورمونات، نحو الإغراق في الوحدة.

وعندما يذهب العمر بالهورمونات يندر الحب. لكنه عندما يحدث يكون حباً أكثر حظاً في تبديد الوحدة، أو في تبديد ما يمكن تبديده منها: إذ إن الحب حينها لا يكون مأسوراً بإلحاح الهورمونات وتسرّعها، وهو في الوقت نفسه لا يكون مصرّاً على تبديد كامل للوحدة، لوعي صاحبه باستحالة هذا التبديد.

أما الحالات التي تكون محكومة كليّة بالهورمونات، والتي لا أدّعي معرفتها إلا لماماً، فقد يعرفها الرجال أكثر من النساء. وقد تقع فريستها النساء اللواتي تربين على نظرة دونية أو شيئية إلى أنفسهن. وهي حالات من «الحب» اليائس من تبديد الوحدة، وبالتالي من الحب الذي لا يطير ولا يهبط، وفي الغالب لا نطلق على هذا النوع اسم «الحب». أما لماذا يكثر هذا بين الرجال عما هو عليه بين النساء، فقد يكون السبب هو ما يبنيه المجتمع من نظرة دونية للنساء وفوقية للرجال، فلا يعود لائقاً بالرجل أن يعتبر المرأة قادرة على تبديد وحدته، بينما تشجّع المرأة على الرغبة في ثنائية مع رجل يحمل في نظرها القدرة والمرجعية وبعض الألوهة التي نتوق جميعاً لتبديد وحدتنا بالتوحد معها.

دوائر الحب العقارية

الحب فضاء تحاول دوائر المجتمع العقارية أن تفنده في دفاتر متجانسة تكون الحدود فيها مرسومة بدقة متناهية ووحشية صارمة. فهي تصطاد الحب لتحشره في خانات صغيرة تدجن وتقولب. وهذه الدوائر العقارية لا تكتفي بأن تحدد أي العقارات لك وأيها لجارك، بل تسعى لأن تعين لك طريقة تعاطيك ضمن العقار: أي، متى تأكل ومتى تنام وما مواعيد استحمامك وأوقات عملك ضمن العقار الذي، لو قبلت معها أنه ليس بفضاء ولا ما يفرحون أو يحلقون، لا تعود تدري إن أنت تملكه أو هو يملكك.

والمجتمع بدوائره وأنماطه يسعى أيضاً إلى إقناعك بأسباب سعادتك واكتفائك بعقارك وأسباب بؤسك فيه. فلو كنت فرحاً لأن عقارك يسمح لك أن تنفذ من نوافذه وأبوابه لتستنشق الهواء، يقنعك بأن العقار المغلق اللاصق بأنفاسك، الرافض لأشعة الشمس، هو الأفضل بما لا يقاس. ولو كنت مكتفياً وراضياً بطفلة صغيرة تأتيك «على البيعة»، بعد أشهر الانتظار، قالوا لك إنه عليك أن تشعر بالظلامة لأنها ليست طفلاً.

يحاول المجتمع بدفاتر قيده إجبارك على عدم المزمزة والتذوق، فارضاً عليك إما عقد ولائم التخمة، الموصلة إلى صدّ النفس، وإما الصيام حتى التلاشي والدوخان. فمرحلة البين بين تخيفه وتربكه، وإن كانت في رأيك أجمل

نجلاء حماده

المراحل وألطفها. فالمجتمع يعتاش ويتكاثر بفضل تعاطيك مع عقارك كما يريد، بحيث يستنفذك ويستنفذه، وهو يخاف إن داريتما وحفظتما بعضكما البعض من أن تبخلا عليه، فلا يعود يستفيد إذ يستعطيكما تباعاً حتى يأخذ كليكما كليّة. فكلاكما في نظر المجتمع عقار يصرّ على امتلاكه وامتلاك آفاقه وتحركاته وثمراته.

ولعلّ الهروب من دوائر الحب العقارية لا يتمّ إلا بواسطة الكلمة. والشعر، أو النثر الشعري، هو أكثرها تفلّتاً. فمثلاً يمكنك، نظرياً أو شعورياً، التفلت في اللحظة الحرجة بواسطة الكلمة، وإرجاء توقيع عقد الملكية إلى أجل لا يسمى ولا يأتي أبداً:

زفاف مؤجّل

أهديتني ثوب زفاف أسود
محشواً بما يعود إلى التراب
وإكليل عرق وكآبة.
وبحركة تنازلية محسوبة دعوتني:
«لنجلس إلى المائدة،
بقايا عشاء البارحة».
قلت في سرّي:
« لن أخبره من أنا
وسيعرفني.»
وذهبتُ بعيداً وأوغلت.

وفي حالة الحب يجزع واحدنا من أي رتابة أو تكرار:

سأم

نظرت من النافذة
إلى جارنا الذي يلاعب أباه بطاولة الزهر
كل يوم أحد، طوال النهار.
ضعفت الصرامة من وجهي،
وهطلت دموعي.

والحب يلذّ له التغيير، حتى التغيير المؤذن بنهاية الحب نفسه، فيتغزّل بدهشة وفضول بجسد الحبيب الذي سكن فيه العشق ولم يعد يسكنه:

الجسد المغلق

وجه مرتاح امّحى منه التوتّر،
عينان باردتان تحملان ذكرى الشغف،
يدان ساكنتان عليهما أثر اللهفة المرتبكة.
القامة تقصر،
الثقل يستسلم لجاذبية الأرض،
الكيان يجمد ويتوقّف عن الصيرورة.
جسد لا يقول حتى: «ماذا بعد؟»!

وعندما ترى أن صاحبك من عالم لا يلائم الحبّ أو يعرفه، وأنه لا يلحظ الفرق بين موقع القلب ونبض المعدة، تعلم أنه عميل لدى الدوائر العقارية، إنسان من زجاج:

الإنسان الزجاجي

لا يستوقفك
ولا يحجب عنك من يقف خلفه:
هو نافذة يسطع من خلالها الضوء، أو تُظلِم عند هجوع الليل.

قد تتلذّذ بصلبه قربك
متشدّقاً بالحركة الدافقة منك،
على مرأى من جموده الذليل.
وقد تضيق ذرعاً بصنميّته،
فتلقي عليه حصوة تهشمه.

ويبقى الحب فضاء في عالم الأحلام:

حلم

عندما نلتقي على قمة العالم

ويتراجعون من حولنا،
ونطاول العناصر
سأقول له الحقيقة.

عندما يغدو المحيط تحتنا بلّوراً مورقاً،
ونخطو خارج دائرة الزمن،
ونتأملهم من الخارج
سيفهم ما أقول.

وعندما تشعّ الشمس علينا
وتتواطأ الأشجار فتظلّلنا
ويهلّلون جميعاً لنا
سيغدو كلامنا بلا حنجرة.

ورغم ارتفاع وتيرة الأحلام وصغر الواقع تحدث قصص الحبّ.

قصة حب ١

هلّلوا لانبلاج الرؤيا:
رأيت من خلقنا
ومن وُجدنا من أجله.

كيف أصف بهاءه؟
ذلك الجبان المنزوي وغير المبالي.
ذلك الرائع السكران،
الابن الشرعي الوحيد لهذا العالم!

رآني خلسة بعيون نصف مغلقة
فهتفت: «دخلت ذاكرة الزمن.»

نقبت عنه في الصحو والغفلة
ومجّدت بعده واستعلاءه.

من جلاله تعلّمت أن أحكم عالمي بلا مستشارين.
من إغرائه فككت الحزام الضّاغط وانطلقت،
وعندما كبا برأسه أقنعت نفسي أنه يناديني.

بعد الخطفة علق الحنين في حلقي،
نزلتُ من عربة الزمن وانتظرت.
مرّت بي قوافل كثيرة، نادتني ولم أرها
وأصابني العطش والدّوار في صحراء خالية منه.
تتالت الرؤى
ونزلت عليّ صور كثيرة كانت تدقّها الشمس في رأسي.

قصة حب ٢

أحدنا البحر والثاني كوب من الماء.
ينأى بالبحر حنانه مخافة أن يبتلع الكوب،
والكوب لا يقترب من البحر هلعاً من الاضمحلال فيه،
ويتعايشان.

قصة حب ٣: كيف ابتُلع البحر

البحر بأمواجه المتعدّدة،
بعضها عميق المدى
بعضها طاف ويافع،
تتثاقل لتنقضّ
تنحسر لتندفع
تحتار ثم تجزم،

وفي كلّ هذا لا يرى إلاّ نفسه.

إلى جانب البحر تقع بركة صغيرة
شبه راكدة،
قعرها قريب
ومياهها الصافية فرحة بقليلها،
فلا تفتأ تفترّ عن حصى لؤلؤية
بابتسامات تتّسع.

وسع البحر الكثير
وضاق بالبركة القانعة:
« لا موج لها ولا حول،
فلم تربض قرب البحر وكأنها صنو له وندّ؟!»

كان البحر، بين فينة وأخرى،
يلمح البركة بنظرة جانبية.
لم يجنّد لها ذبذبة أو لفتة،
لكنه ضاق بها.

تدافعت أمواجه باضطراب أضاع الإيقاع،
كادت تعمّه فوضى الغضب،
شعر بالمهانة لموقعه وجيرته،
لكون الشمس تراه قابعاً إلى جانب البركة.
بدت له صورته مهينة
وودّ لو يندثر من العيون.

حار في أمره:
كيف يفقد اتّزانه بسبب بركة تافهة؟
لم لا يبتلعها؟

شعر بالغثيان، فهو يريد احتواء أشياء كثيرة،
لكن البركة المبتسمة ليست من بينها.
حاول أن ينساها، لكن اكتفاءها وفرحها حالا دون ذلك.
كان أحياناً يتساءل: «بماذا تكتفي وبماذا تفرح؟»

بعد الحيرة
علم أن البركة فرحة بجيرته ومكتفية بقربها منه.
عندها اندفع يغور ويضمحل في باطن الأرض.
اختفى أثره،
وامّحت صولاته وجولاته.
ظهر في مكانه قعر رملي داكن، كجوف حيوان مريض.

بقيت البركة،
ثم عادت تفترّ عن حصى لؤلؤيّة تلمع في أشعة الشمس.

قصة حب ٤

رائحة الموت تنبعث من قطار هامس
يضيع في دقات قلبي.
والحصى الكثيرة
تغلّفها عجينة دافئة،
فأنسى الحصى
وتغيب عيناي في البحر،
ومع وجوهي الكثيرة المبتسمة
أبقى مكفهرّة وحدي.

أحياناً تطيل الانتظار لتحصل على ما تريد:

انتظار

وأنا أسوّي أمري للخروج إليهم،

بينما الجميع وقوفاً ينتظرون،
تسلّل الكبَر إلى وجهي.

كنت في حيرة: «أأحملهم أم يحملوني؟»
والآن لا أقدر على حملهم
ولا هم يقبلون بحَملي.

ليتني بكرت قليلاً.

وأحياناً تسيء الاختيار:

العكاز

يستعين بعكّاز من القشّ،
كلّما ألقى به ليستند إليه،
وجد نفسه مضطراً إلى تقويم العكّاز وحمله.

يبتلي بعاشق دائم الإغفاء،
كلما استفاق، تحرّكت شهيّته للأكل المتعدّد النكهات.
يعاقر العشق بين إغفاءة وأخرى، بين لقمة ولقمة.

مورّد الوجه
طافح العينين،
يمضغ كلمات الشوق براحة،
ويمني النفس بملامسات لا تصل عبر جلده السّميك.

أحياناً يحزنك الأمر ويولّد لديك رغبة في الفناء:

عفن أزرق ورداء أخضر

عندما يحيط العفن الأزرق بالقلب،
ترتدي ثوباً خريفيّ الاخضرار

وتغوص في الرمال جسداً وروحاً.
تعانق الظلمة بفرح الطفل في مخبئه.
تغمض العينان في الرّمل وترتاح:
«هنا يُحتضن الوجه ولا يُصفع.»

وأحياناً تغلب عليك السخرية. فإن صادفت إنساناً منتظماً، قابعاً في خانة من خانات الدفاتر العقارية، تتظاهر أنك تغبطه وتُعجب به:

هنيئاً لك الانخراط والقبول

ما أجمل أن يدير الإنسان حجر الطاحون
أن يشدّ حيله ويدور دائماً في نفس الدائرة.
من يدري؟ قد يوجد قمح تحت الحجر
فيغدو طحيناً.
وعلى كلّ حال،
هناك دائماً ساعات الضحك المجلجل،
حيث نحقّق أنفسنا وما نصبو إليه.

لعلّ أفشل العلاقات هي علاقات الحب. فالصداقة قلّما تقيّد أو تجبر الأصدقاء، وحتى الحب العائلي يترك فسحة ومدى بين أفراده. أما الحبّ الروحي أو الفكري، فلعلّه الأكثر انطلاقاً إذ يسلّم الزّمام كليّة فيه للمحب، لمزاجه ووتيرته، فيؤلّف المحبوب على ذوقه ووفق ما يلزمه. لكن كون الحب بين الرجل والمرأة مصدراً نفعياً لمجتمع تحكمه المصلحة يحمل المجتمع على الدوس على الأفراد وعلى حبهم المتحوّل، الدائم التأجج والخبو، ليجعل منهم ومنه كياناً جامداً. بل إن المجتمع يوجد صراعاً بين طرفي هذا الحب ويسنّ تمايزاً وتمييزاً يأسران كلاً منهما ويحدّان من انطلاقهما ومن حلاوة الرفقة بينهما.

قد تكون ممارسات المجتمع إزاء المحبين صادرة عن حكمة ما أو من أجل مصلحة تتخطّى الأفراد، لكنهما حكمة ومصلحة تخلّفان الكثير من الحزن والألم، وتحولان دون الكثير من الفرح والسعادة.